

الآداب الشرقية القديمة

2. آداب بلاد ما بين الرافدين

تمهيد:

طرقت البشرية أبواب الحضارة على يدي سكان وادي الرافدين في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، «حيث نشأت أولى المدن، ونظام الحكم، والكتابة والتدوين والشرائع المدونة والفنون والآداب وأسس العلوم والمعارف، إلى غير ذلك من مقومات المدنية»، والنتاج الأدبي في حضارة وادي الرافدين ذو خطورة خاصة في تاريخ الآداب البشرية، لأنه يمثل لنا أولى محاولات الإنسان للتعبير عن الحياة وقيمها ومعانيها بأسلوب الخيال والفن، وبالرغم من أن هذه كانت أولى المحاولات في تاريخ تطور الإنسان فإن أعجب وأروع ما سيجده الفاحص لآداب وادي الرافدين هو أنها، مع إيغالها في القدم وسبقها جميع الآداب العالمية، تتسم بالصفات الأساسية التي تميز الآداب العالمية المشهورة، سواء أكان ذلك من ناحية الأساليب وطرق التعبير، أو من ناحية الموضوع والمحتوى أو من ناحية الأخيلة والصور الفنية.

وبالإضافة إلى ميزة القدم، يتميز أدب العراق القديم بأنه وصلنا كما هو دون تحوير أو تبديل مقارنة ببقية الآداب القديمة، ذلك أن الأدب السومري- البابلي قد وصلنا على هيئته الأصلية كما كتب بأنامل الكتبة السومريين والبابليين قبل أربعة آلاف عام.

وعلى الرغم من هذه العراقة الممتدة، كان السومريون يتصورون أنفسهم ورثة ماض بعيد مجيد، وقد تخيلوا ذلك الماضي البعيد على هيئة "عصر ذهبي" كان السلام والوئام فيه يسودان العالم، فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء، ولا حيوانات مفترسة تنازع الإنسان البقاء، بل كان الخير يعم الكون، وكان البشر بلسان واحد يمجدون الإله إنليل.

وقد كان الشعر أقدم نتاج أدبي في حضارة وادي الرافدين، كما في الحضارات الأخرى، والأرجح أن منشأ الشعر من الغناء والقصيد الشعبي، وقد كان شعر وادي الرافدين سومريا كان أو بابليا يخضع لفن خاص في النظم والتأليف. فهو يتألف من أبيات، قوام كل بيت من مصراعين، وكان موزونا لكنه لم يكن مقفى.

التعريف بملحمة جلجامش:

ملحمة جلجامش هي أقدم نموذج من أدب الملاحم في تاريخ الحضارات، وهي قصيدة شعرية طويلة مدونة بالخط المسماري، واللغة البابلية على اثني عشر لوحا من الطين تسمى الرقيم، عثر على معظمها في مكتبة الملك آشور بانبيال في العاصمة نينوى. ويعود زمن استنساخ الرقم الآشورية هذه إلى القرن السابع قبل الميلاد، (668-626 على وجه التحديد). كما عثر في مدن متعددة على ألواح أخرى تحمل أجزاء من الملحمة ترجع أزمنة كتابتها إلى عصور مختلفة أحدثها القرن السادس قبل الميلاد (العصر البابلي الحديث)، وأقدمها مطلع الألف الثاني قبل الميلاد (العصر البابلي القديم).

أما بطل الملحمة، فهو شخصية تاريخية هو الملك السومري جلجامش، سادس ملوك سلالة الوركاء الأولى، الذي حكم في حدود 2650 ق.م. وعلى الرغم من أن ملحمة جلجامش نتاج بابلي صرف، بلغتها وخيالها ومضامينها، إلا أنها بكل تأكيد ترجع إلى أصول سومرية قديمة كانت المنبع الذي استقى منه المؤلفون البابليون مادتهم.

المحاور الموضوعاتية للملحمة:

تقع الملحمة في ثلاثة أجزاء رئيسية: الأول منها يدور حول الأعمال البطولية لجلجامش ورفيقه أنكيديو، بينما يروي القسم الثاني قصة الطوفان العظيم وحصول رجل الطوفان على الخلود، أما القسم الثالث فإنه يتعلق بمسألة الموت، والعالم الأسفل.

ملخص أحداث الملحمة:

تبدأ الملحمة بالحديث عن جلجامش، ملك أورك – الوركاء الذي كانت والدته الهة خالدة ووالده بشرا فانيا ولهذا قيل بأن ثلثيه إله والثلث الباقي بشر. وبسبب الجزء الفاني منه يبدأ بإدراك حقيقة أنه لن يكون خالدا.

يظهر جلجامش في الملحمة ملكا غير محبوب من قبل سكان أورك؛ حيث تنسب له ممارسات سيئة منها ممارسة تسخير الناس في بناء سور ضخم حول أورك العظيمة.

ابتهل سكان أورك للآلهة بأن تجد لهم مخرجا من ظلم جلجامش فاستجابت الآلهة وقامت إحدى الإلهات، واسمها أرورو، بخلق رجل من الطين يغطي الشعر الكثيف جسده ويعيش في البرية يأكل الأعشاب ويشرب الماء مع الحيوانات؛ أي أنه كان على النقيض تماما من شخصية جلجامش.

ويرى بعض المحللين أن هذين الشخصيتين يرمزان إلى الصراع بين البرية و الحضارة أو حياة المدن الذي بدأ السومريون بالتعود عليها تدريجيا بعد أن غادروا حياة البساطة والزراعة المتمثلة في شخصية أنكيديو.

كان أنكيديو يخلص الحيوانات من مصيدة الصيادين الذين كانوا يقتاتون على الصيد، فقام الصيادون برفع شكواهم إلى الملك جلجامش؛ فأمر إحدى خادمتي المعبد بالذهاب ومحاولة إغواء أنكيديو ليمارس العلاقة الحميمة معها؛ وبهذا تبتعد الحيوانات عن مصاحبة أنكيديو ويصبح أنكيديو مروّضا ومدنيا.

حالف النجاح خطة الملك جلجامش، وبدأت خادمة معبد الإلهة عشتار - وكان اسمها شمخات - بتعليم أنكيديو الحياة المدنية؛ ككيفية الأكل واللبس وشرب النبيذ، ثم تبدأ بإخبار أنكيديو عن قوة وبطش جلجامش وكيف أنه يدخل بالنساء قبل أن يدخل بهن أزواجهن. ولما عرف أنكيديو بهذا قرر أن يتحدى جلجامش في مصارعة ليجبره على ترك تلك العادة.

يتصارع الاثنان بشراسة؛ فهما متقاربان في القوة، ولكن الغلبة في النهاية كانت لجلجامش، حيث اعترف أنكيديو بقوة جلجامش، وبعد هذه الحادثة يصبح الاثنان صديقين حميمين.

يحاول جلجامش دائما القيام بأعمال عظيمة ليبقى اسمه خالدا؛ فيقرر في يوم من الأيام الذهاب إلى غابة من أشجار الأرز؛ فيقطع جميع أشجارها، وليحقق هذا عليه القضاء أولا على حارس الغابة، وهو مخلوق ضخم وقبيح اسمه خومبابا. ومن الجدير بالذكر أن غابة الأرز كانت المكان الذي تعيش فيه الآلهة ومن المؤرخين من يزعم أن المكان المقصود هو غابات أرز لبنان.

الصراع في غابة الأرز:

يبدأ جلجامش وأنكيديو رحلتهما نحو غابات أشجار الأرز بعد حصولهما على مباركة شمش إله الشمس الذي كان أيضا إله الحكمة عند البابليين والسومريين وهو نفس الإله الذي نشاهده في حكاية حمورابي المشهورة وهو الذي يناول الشرائع إلى الملك حمورابي.

وأثناء الرحلة يرى جلجامش سلسلة من الكوايبس والأحلام لكن أنكيديو الذي كان في قرارة نفسه متخوفا من فكرة قتل حارس الغابة يطمئن جلجامش بصورة مستمرة على أن أحلامه تحمل معاني النصر والغلبة.

عند وصولهما الغابة يبدأ بقطع أشجارها فيقترب منهما حارس الغابة خومبابا ويبدأ قتال عنيف ولكن الغلبة تكون لجلجامش وأنكيديو حيث يقع خومبابا على الأرض ويبدأ بالتوسل منهما كي لا يقتلاه ولكن توسله لم يكن مجديا حيث أجهز الاثنان على خومبابا وأردياه قتيلا. أثار قتل حارس الغابة غضب الهة الماء أنليل حيث كانت أنليل هي الآلهة التي أناطت مسؤولية حراسة الغابة لخومبابا.

بعد مصرع حارس الغابة الذي كان يعتبر وحشا مخيفا يبدأ اسم جلجامش بالانتشار وتعلو شهرته الآفاق فتحاول الآلهة عشتار التقرب منه بغرض الزواج ولكن جلجامش يرفض العرض فتشعر عشتار بالإهانة

وتغضب غضبا شديدا فتطلب من والدها أنو، إله السماء، أن ينتقم لكبريائها فيقوم أنو بإرسال ثور مقدس من السماء لكن أنكيديو يتمكن من الإمساك بقرن الثور ويقوم جلجامش بالإجهاز عليه وقتله.

بعد مقتل الثور المقدس تعقد الآلهة اجتماعا للنظر في كيفية معاقبة جلجامش وأنكيديو لقتلهما مخلوقا مقدسا فيقررون قتل أنكيديو لأنه كان من البشر أما جلجامش فكان يسري في عروقه دم الآلهة من جانب والدته , فيبدأ المرض المنزل من الآلهة بإصابة أنكيديو الصديق الحميم لجلجامش فيموت بعد فترة.

رحلة جلجامش في بحثه عن الخلود:

بعد موت أنكيديو يصاب جلجامش بحزن شديد على صديقه الحميم حيث لا يريد أن يصدق حقيقة موته فيرفض أن يقوم أحد بدفن الجثة لمدة أسبوع إلى أن بدأت الديدان تخرج من جثة أنكيديو فيقوم جلجامش بدفن أنكيديو بنفسه وينطلق شاردة في البرية خارج أورك وقد تخلص عن ثيابه الفاخرة وارتدى جلود الحيوانات.

وبالإضافة إلى حزن جلجامش على موت صديقه الحميم أنكيديو كان في قرارة نفسه خائفا من حقيقة أنه لا بد من أن يموت يوما لأنه بشر والبشر فاني ولا خلود إلا للآلهة .

بدأ جلجامش في رحلته للبحث عن الخلود والحياة الأبدية. لكن لكي يجد سر الخلود عليه أن يجد الإنسان الوحيد الذي وصل إلى تحقيق الخلود وكان اسمه أوتنابشتم والذي يعتبره البعض مشابها جدا ان لم يكن مطابقا لشخصية نوح في الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام.

وأثناء بحث جلجامش عن أوتنابشتم يلتقي بإحدى الالهات واسمها سيدوري التي كانت آلهة النبيذ وتقوم سيدوري بتقديم مجموعة من النصائح إلى جلجامش والتي تتلخص بأن يستمتع بما تبقى له من الحياة بدل أن يقضيها في البحث عن الخلود وأن عليه أن يشبع بطنه بأحسن المأكولات ويلبس أحسن الثياب ويحاول أن يكون سعيدا بما يملك لكن جلجامش كان مصرا على سعيه في الوصول إلى أوتنابشتم لمعرفة سر الخلود فتنقوم سيدوري بإرسال جلجامش إلى الطَّوَّافِ أورشنبي، ليساعده في عبور بحر الأموات ليصل إلى أوتنابشتم الإنسان الوحيد الذي استطاع بلوغ الخلود.

عندما يجد جلجامش أوتنابشتم يبدأ الأخير بسرد قصة الطوفان العظيم الذي حدث بأمر الآلهة وقصة الطوفان هنا شبيهة جدا بقصة طوفان نوح، وقد نجى من الطوفان أوتنابشتم وزوجته فقط وقررت الآلهة منحهم الخلود .

بعد أن لاحظ أوتنابشتم إصرار جلجامش في سعيه نحو الخلود قام بعرض فرصة على جلجامش ليصبح خالدا، إذا تمكن جلجامش من البقاء مستيقظا دون أن يغلبه النوم لمدة 6 أيام و 7 ليالي فإنه سيحقق الحياة

الأبدية ولكن جلامش يفشل في هذا الاختبار إلا أنه ظل يلح على أوتنابشتم وزوجته في إيجاد طريقة أخرى له كي يحصل على الخلود.

تشعر زوجة أوتنابشتم بالشفقة على جلامش فتدله على عشب سحري تحت البحر بإمكانه إرجاع الشباب إلى جلامش بعد أن فشل مسعاه في الخلود، يغوص جلامش في أعماق البحر في أرض الخلود دلمون (البحرين حاليا) ويتمكن من اقتلاع العشب السحري.

عودة جلامش إلى أورك:

بعد حصول جلامش على العشب السحري الذي يعيد نضارة الشباب يقرر أن يأخذه إلى أورك ليجربه هناك على رجل طاعن في السن قبل أن يقوم هو بتناوله ولكن في طريق عودته وعندما كان يغتسل في النهر سرقت العشب إحدى الأفاعي وتناولته فرجع جلامش إلى أورك خالي اليدين وفي طريق العودة يشاهد السور العظيم الذي بناه حول أورك فيفكر في قرارة نفسه أن عملا ضخما كهذا السور هو أفضل طريقة ليخلد اسمه. في النهاية تتحدث الملحمة عن موت جلامش وحزن أورك على وفاته.

مكانة الملحمة في الأدب العالمي:

لعل من أبرز الأسباب التي أكسبت ملحمة جلامش شهرة واسعة قديما وحديثا هو موضوعها الإنساني المحض، يقول الأستاذ سبايزر: "إن ملحمة جلامش تتعامل مع أشياء من عالمنا الدنيوي مثل الإنسان والطبيعة، الحب والمغامرة، الصداقة والحرب، ولقد أمكن مزجها جميعا ببراعة متناهية لتكون خلفية لموضوع الملحمة الرئيسي ألا وهو "حقيقة الموت المطلقة"، إن الكفاح الشديد لبطل الملحمة من أجل تغيير مصيره الإنساني المحتوم، عن طريق معرفة سر الخلود من رجل الطوفان، ينتهي بالفشل في نهاية الأمر، ولكن مع ذلك الفشل يأتي شعور هادئ بالاستسلام. ولأول مرة في تاريخ العالم تجد تجربة عميقة على مثل هذا المستوى البطولي تعبيراً بأسلوب رفيع. إن مدى الملحمة ومجالها وقوتها الشعرية العارمة جعلتها تنال إعجاب الناس في كل العصور، ففي العصور القديمة انتشر أثر هذه الملحمة الشعرية إلى لغات ومراكز حضارية عديدة، واليوم تستحوذ على الشعر وعشاقه على حد سواء".

علاوة على ذلك، تشكل الملحمة منجما زاخرا لعلماء التاريخ والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم الإنسانية، يستقى منه فهم أوجه ومقومات أساسية لأحوال العراق القديم قبل أربعة آلاف سنة، فيقف فيها على عقائد القوم الدينية، وآرائهم وأفكارهم في الحياة والكون وأحوالهم الاجتماعية والتاريخية.

مطلع الملحمة:

اللوح الأول

العمود الأول

- (١) هو الذي رأى كلَّ شيءٍ في تخوم البلاد،
- (٢) عرف البحار، وأحاط علمًا بكلِّ شيءٍ،
- (٣) كما نفذ ببصره إلى أشد الأسرار غموضًا.
- (٤) امتلك الحكمة والمعرفة بجميع الأشياء،
- (٥) واطلع كذلك على المكنون، وكشف عن الأمور الخافية.
- (٦) جلب معه أخبار (العهود السابقة) على الطوفان،
- (٧) وقطع طريقًا بعيدًا، حتى أصابه التعب (ونال منه) الإرهاق،
- (٨) ونقش على نصب حجري كل ما عاناه.
- (٩) أمر ببناء سور أوروك (الفيحاء)،
- (١٠) حول معبد إيانا المقدس، وحرّمها السني.
- (١١) انظر إلى (جدار) سوره الذي تتألق أفاريزه،
كانما صُنِعَتْ من نحاس!
- (١٢) تأمّل قاعدته! فليس لها (في أعمال البشر) شبيهه!
- (١٣) وتلمّس العتبة الحجرية — الموجودة في مكانها من أقدم الأزمان!
- (١٤) اقترب من إيانا، مقام عشتار،
- (١٥) الذي لا يماثله عمل ملك لاحق ولا (يدانيه عمل) إنسان،
- (١٦) واعتل كذلك سور أوروك، تمشّ عليه.
- (١٧) اختبر أسسه، تفحص لبناته.
- (١٨) أولم تصنع من آجر مفخور؟
- (١٩) أولم يضع الحكماء السبعة أسسه؟
... (...)
- (٣) لمّا خُلِقَ جلجاميش،
- (٤) أكمل بطل الآلهة هيئته،
- (٥) اشترك الآلهة في صنع صورته؛
- (٦) فأضفى عليه الجمال شمش السماوي، وحباه أددُ البطولة.

(٧) على أروع صورة خلق الآلهة العظام جلجاميش:

بلغ طول قامته أحد عشر ذراعًا،

(٨) وعرض صدره تسعة أشبار.

أهم المراجع المعتمدة:

- فاضل عبد الواحد علي: "ملحمة جلجامش"، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 16 العدد 1، 1985.

- طه باقر: ملحمة كلكامش؛ أوديسة العراق الخالدة.